

سُورَةُ لُقْمَانَ

حين تُصبح الحكمة قلبًا يمشي على الأرض



تأليف: رَدَّاد السَّلَامِيُّ

سُورَةُ لُقْمَانَ
حين تُصبح الحكمةُ قلباً يمشي على الأرض

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مقدمة خاطفة للقلب

ليست الحكمة أن تعرف كثيراً، بل أن ترى كلَّ شيءٍ في موضعه تحت نور الله.
أن تعرف حجم الدنيا، فلا تمنحها قلبك كله.
وحجم الإنسان، فلا تدعه ينتفخ حتى ينسى أصله.
وحجم الذنب، فلا تحتقره وإن اختبأ في صخرة.
وحجم الله في يقينك، فلا تخاف بعده شيئاً.
وهكذا تفتح سورة لقمان بابها.

لا بضجيج الفلاسفة.

ولا بتزاحم النظريات.

بل بكآبٍ حكيم، ورجلٍ حكيم، وأبٍ يقترب من ابنه حتى يكاد القارئ يسمع
دفعاً صوته وهو يقول:
يا بُني.

نداء صغير في حروفه، واسع في رحمته.

في السورة صوتان يتقابلان: صوتٌ يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله،
وصوتُ أبٍ مؤمن يزرع في قلب ابنه كلماتٍ لا تلي. هناك من يملأ الأذان
ضجيجاً كي تنسى الحقيقة، وهنا من يهمس بالحقيقة حتى تستيقظ الأرواح.
وبين الصوتين يمتدُّ الكون: سماواتٌ مرفوعة بغير عمد، وأرضٌ ألفت فيها الجبالُ
مراسيها، وليلٌ يدخل في نهار، ونهارٌ يتسلل إلى ليل، وبحرٌ لو صار مداداً لنفدت
مياهه وبقيت كلمات الله.
إنها سورةٌ تعيد الإنسان إلى حجمه.

تضع يده في يد أبيه.
ثم ترفع عينه إلى السماء.
ثم تنزله إلى أعماق ضميره.
ثم توقفه أمام يوم لا يغني فيه والدٌ عن ولده، ولا مولودٌ عن والده شيئاً.
فتبدأ الرحلة بالحكمة، وتنتهي بالساعة.
وكان السورة تقول: بين أن نتعلم كيف تعيش، وأن نعرف إلى أين تمضي، يولد الإنسان حقاً.

الفصل الأول

الكتاب الذي لا يرفع صوته

تبدأ السورة بالحروف المقطعة:

(الم)

ثلاثة أحرف يعرفها العرب، لكنهم لا يستطيعون أن يصنعوا منها مثل هذا القرآن. المادة بين أيديهم، والسر فوق طاقتهم. الحروف هي الحروف، غير أن النفخة التي سرت فيها ليست من الأرض.

ثم يأتي الوصف:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ)

ليس كتاباً يجمع المعلومات فحسب، بل كتابٌ حكيم. يضع الكلمة في موضعها، والحكم في زمنه، والمشهد في مكانه. لا زيادة فيه تفسد المعنى، ولا نقص فيه يترك الروح حائرة.

والحكمة في القرآن ليست فكرةً باردة.

إنها هدايةٌ ورحمة.

(هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)

يهديك لأنك قد تضل.

ويرحمك لأنك قد نتعب.

ينخبرك بالطريق، ثم يرفق بك وأنت تمشي فيه.

ولم يقل: هدى للعالمين هنا، بل جعله هدى ورحمة للمحسنين؛ لأن القرآن، وإن كان نوره مبذولاً للناس جميعاً، لا تلتقط أسرارهِ إلا القلوب التي أتت إليه رغبةً في الحق، مستعدةٌ لأن تتغير.

فالمحسن لا يقرأ الآية ليمدحها ثم يمضي.
بل يقرأها لتعيد بناءه.

ولهذا وصفتهم السورة بالفعل:

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)

الصلاة تُصلح الصلة بالله.

والزكاة تُصلح الصلة بالخلق.

واليقين بالآخرة يُصلح ميزان الحياة كُلِّها.

فإذا صلحت جهات الإنسان الثلاث، استقام: فوَّه ربُّ يعبد، وحوله خلقٌ

يرحمهم، وأمامه آخرةٌ يستعدُّ لها.

إنه لا يعيش مبعثراً.

يعرف من أين يستمد النور.

ولمن يبذل الخير.

وإلى أين تنتهي الرحلة.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

تأمل قوله: (عَلَى هُدًى).

كأن الهدى أرضٌ ثابتة يقفون عليها، فيما يتخبط غيرهم في الوحل. وكأن الهدى

مركبٌ يحملهم فوق أمواج الفتنة. ليس الهدى خاطراً عابراً في نفوسهم، بل مقامٌ

يحملهم ويحمي أقدامهم من السقوط.

ثم يقول:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

والفلاح ليس لحظة انتصار عابرة، بل نجاة الكيان كله. أن ينجو قلبك من الضلال،

وعقلك من التزييف، وعمرك من الضياع، ومصيرك من الخسران.

ذلك هو الفلاح.
لا أن تملك كثيراً، بل ألا تضيع وأنت تجمع ما تملك.

الفصل الثاني

حين يُشْتَرَى الضجيج

بعد الكتاب الحكيم يظهر نقيض الحكمة:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

إنها مفارقة موجعة.

هناك من يشتري ما يلهيه.

يدفع من ماله، ومن وقته، ومن عمره، ومن صفاء قلبه؛ ليحصل على شيء يبعده عن الله.

ولا يلزم أن يكون اللهو صاخباً دائماً. قد يأتي في هيئة فكرة لامعة، أو حكاية جذابة، أو جدل ممتع، أو معرفة لا تقود إلى هداية. فكل حديث يملأ الروح بما يصرفها عن غايتها، ويخدر فيها سؤال المصير، له نصيب من هذا اللهو. المشكلة ليست في أن يضحك الإنسان.

بل في أن يضحك حتى ينسى لماذا يبكي العالم من حوله. وليست في أن يستريح.

بل في أن تتحول الاستراحة إلى غيبوبة طويلة عن الله.

والتعبير بالشراء يكشف قراراً داخلياً. هذا إنسان لم يقع في اللهو مصادفة، بل بحث عنه، واختاره، ومنحه أثمن ما يملك: عمره.

والأفدح أنه لا يكتفي بضياعه:

(لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

إن الضال قد يكون منكسراً يبحث عن يد. أما المضلُّ فقد حوّل جرحه إلى سكين، وظلمته إلى طريق يدعو الآخرين إليه.

ثم يزيد الأمر سوءاً:

(وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا)

حين يعجز الباطل عن هزيمة الحقيقة بالحجة، يحاول إسقاط هيبتها بالسخرية. يضحك منها حتى لا يضطر إلى مواجهتها. يحوّل المقدس إلى مادة للتندر، لأنه يخشى أن يصغي إليه فيجد نفسه متهماً أمام ضميره.

لكن الحقيقة لا تنقص حين يُستهزأ بها.

الشمس لا تنطفئ لأن أعمى أنكرها.

ثم ترسم السورة صورة الإعراض:

(وَإِذَا بُدِّئَ عَلَيْهِ آيَاتًا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقْرًا)

هو يسمع الصوت، لكنه لا يسمح للمعنى بالدخول.

فليست كلُّ أذن تسمع، ولا كلُّ عين ترى. قد تكون الحواس سليمة، غير أن الكبر أقام بينها وبين الحقيقة جداراً كثيفاً.

القرآن لا يصطدم أولاً بجهل العقول، بل كثيراً ما يصطدم بكبرياء النفوس. فالحجة

قد تصل، لكن النفس تخاف ما يترتب على وصولها. لأن سماع الحق يعني أن

نتغير، وأن تنازل عن شيء ألفته، وأن تعترف بأنك لم تكن دائماً على صواب.

وهذا ثمن لا يدفعه المتكبرون.

لذلك حملوا في آذانهم وقراً من داخلهم. لم يسدَّ أحدٌ مسامعهم؛ لقد سدّها

استكبارهم.

وفي الجهة المقابلة:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ)

أولئك اشتروا اللهو ففسروا الطريق، وهؤلاء بذلوا أعمارهم في الإيمان والعمل
فربحوا النعيم.

كل إنسانٍ مشترٍ.

لكن الفرق كله في السلعة التي يطلبها، والتمن الذي يدفعه، والسوق التي يثق بها.

الفصل الثالث

كُونُ لَا يَتَكَيُّ عَلَى شَيْءٍ

ترفع السورة بصر الإنسان من ضيق اللهو إلى اتساع الخلق:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

ارفع رأسك.

هذه السماء التي تعبر تحتها كل يوم، ولا تكاد تلتفت إليها، ليست سقفاً مألوفاً. إنها آية معلقة فوقك. اتساعٌ لا ترى له دعامة، ونظامٌ لا تشهد يداً تمسكه، ودقةٌ لا تسمع ضجيجها.

الأشياء البشرية الكبيرة تحتاج إلى أعمدة كثيرة، وكلما عظمت المنشأة كثرت دعائمها. أما السماوات، بكل ما فيها من مجرات ونجوم وأفلاك، فتقوم بأمر كلمة لا نتعب، وإرادة لا يعجزها شيء. إنها لا تتكئ على عمَدٍ تراها، ولكنها تتكئ على قدرة الله. وما من شيء في الكون قائمٌ بنفسه.

كل شيءٍ مفتقر.

وكل قوةٍ مستعارة.

وكل ثباتٍ تمنحه مشيئة الله.

ثم تنقلنا السورة إلى الأرض:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ)

الجبال التي نراها صلابةً جامدة تؤدي وظيفة الرحمة. إنها رواسي، تمسك اضطراب الأرض كي يستطيع الإنسان الهش أن يبني بيتاً، ويغرس شجرة، وينام مطمئناً.

كم من رحمةٍ تحيط بنا في هيئة أشياء صامتة!
الجليل لا يقول لك إنه يحفظ توازن الأرض.
والهواء لا يذكرك كل لحظة بأنه يحمل أنفاسك.
والقلب لا يستأذنك قبل كل نبضة.

إن نعم الله العظمى تعمل في هدوء. وربما كان اعتيادها هو الحجاب الذي يمنعنا
من رؤيتها.

(وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)

لفظة (بَثَّ) تمنح المشهد حياةً وحركة. كأن الأرض كانت صفحة ساكنة، ثم نثر
الله فوقها الكائنات بألوانها، وأحجامها، وأصواتها، وطرائق عيشها.

من نملةٍ تحمل فتاتها.
إلى طائرٍ يشقُّ الفضاء.

إلى مخلوق في قاع بحر لم تره عين إنسان.

كلُّ دابةٍ تحمل سرًّا من أسرار الخلق، وتشهد بأن الحياة لم تخرج من مصادفةٍ
عمياء، بل من علمٍ أحاط بالحاجة قبل أن يخلق صاحبها.

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

الماء ينزل بلا لون، فتخرج به الألوان كلها.

يمرُّ في جذور الشجر، فإذا هو أحمر في ثمرة، وأصفر في زهرة، وأخضر في ورقة،
وحلو في عنب، ومرٌّ في دواء.

ماء واحد.

وتراب متجاور.

ولكن آثار القدرة لا تتكرر.

وصف النبات بأنه (كريم)؛ لأن الجمال كرم، والثمر كرم، والظل كرم، والعطر كرم. الشجرة لا تحتفظ بما تصنعه لنفسها. تمدُّ أغصانها، وتفتح ثمارها، وتهب العالم ما أودع الله فيها.

ثم تأتي المواجهة:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

ليست دعوى نظرية.

هذا الكون معروض أمامكم.

هذه السماء.

وهذه الأرض.

وهذا الماء.

وهذه الحياة.

فأين خلق ما تعبدون من دونه؟

إن الباطل يكثر أسماءه، لكنه لا يستطيع أن يخلق جناح بعوضة. تعدد الآلهة الوهمية، ولا يملك واحد منها أن ينبت ورقة.

(بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

والشرك ظلم؛ لأنه يمنع غير الخالق حقَّ الخالق، ويضع المخلوق في مقام لا يليق إلا بالله. هو فساد في الميزان قبل أن يكون خطأ في العبارة.

ومن اختلَّ في قلبه ميزان الألوهية، اختلت بعده موازين الحياة كلها.

الفصل الرابع

أول الحكمة: أن تشكر

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ)

ما الحكمة؟

قد ينتظر المرء تعريفاً طويلاً، فإذا القرآن يضع جوهرها في كلمة:

أَنِ اشْكُرْ.

كأن الحكمة تبدأ حين تعرف أن ما بك من نعمة فليس منك. وأن ذكاءك، وقوتك، وفرصتك، ونجاتك، والقلوب التي أحبتك، والأبواب التي فُتحت لك، كلها عطايا لم تخلقها لنفسك.

الجاهل يرى النعمة فينتفخ.

والحكيم يراها فينحني شكراً.

الجاهل يقول: حصلتُ عليها لأنني أستحق.

والحكيم يقول: هذا من فضل ربي.

ولذلك لا تجعل الحكمة صاحبها متعاليًا، بل أكثر تواضعًا. كلما اتسعت رؤيته، رأى مقدار افتقاره. وكلما عرف، أدرك أن وراء معرفته بحاراً لم يدخلها.

(وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ)

الله لا ينتفع بشكرنا، لكننا نحن الذين ننجو به من العمى.

الشكر يحفظ النعمة مرتين: يحفظها من الزوال، ويحفظ القلب من أن تزول عنه رؤيتها.

فقد يملك المرء النعمة ولا يشعر بها.

وقد تحيط به الخيرات ويعيش فقير الإحساس.

الشكر لا يزيد ما في اليد فحسب، بل يزيد اتساع القلب لما في اليد.

(وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

إن كفر الناس جميعاً، لم ينقص من ملك الله شيء. وإن حمدوه جميعاً، لم يزد حمدهم في كماله شيئاً.

هو غني عن شكرهم، لكنه محمود وإن لم يحمدوه.

فحمده ليس منحةً تمنحها الألسنة، بل حقيقةٌ يشهد بها الوجود كله.

الفصل الخامس

يَا بُنَيَّ: حين تنجي الحكمة لتقترب

ثم يدخل الأب إلى المشهد.

لا نراه جالساً على عرش التعليم، ولا نسمع في صوته قسوة الأمر. نراه يقترب من ابنه، ويصغر النداء ليكبر المحبة:

(وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ)

إنها ليست مجرد وصايا.

إنها قلب أب يخشى على قلب ابنه.

لقمان لا يتحدث إلى جمهور يصفق له. يتحدث إلى إنسان واحد يعنيه أمره. وهذا هو الصدق التربوي: أن تكون نجاة من تحب أهم عندك من ظهور بلاغتك.

يَا بُنَيَّ.

في النداء قرب يفتح القلب قبل أن تأتي الموعدة. فالقلوب لا تفتح أبوابها للأوامر الجافة بسهولة، لكنها تفتحها حين تشعر أن الكلمة خرجت من موضع الرحمة.

كم أفسدنا من نصيحة صحيحة بطريقة قاسية!

وكم أغلقنا من قلب لأننا طرقنا بابه بعنف!

كان لقمان حكيماً في مضمون قوله، وحكيماً في الطريق إلى نفس ابنه.

ثم بدأ بأعظم شيء:

(لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)

لم يبدأ بآداب المائدة.

ولا بمهارات الحياة.

ولا بكيفية النجاح بين الناس.

بدأ بالتوحيد؛ لأن التربية التي لا تصل قلب الطفل بالله قد تصنع إنساناً مهذباً، لكنها لا تصنع عبداً يعرف لماذا يعيش.

التوحيد ليس فصلاً في العقيدة يُحفظ، بل مركز الوجود كله. أن تعرف أن لك رباً واحداً، فتتوحد وجهتك، ولا تتوزع روحك بين آلهة الخوف والرغبة والناس والمال والسمعة.

الموحد لا يعني أنه لا يحب شيئاً، بل يعني أنه لا يحب شيئاً كجبه الله. ولا يعني أنه لا يخاف، بل لا يجعل خوفه رباً يقوده.

ولا يعني أنه لا يرجو الناس، بل يعرف أن أيديهم لا تعطي إلا بإذن الله.

وسمى الشرك ظلماً عظيماً؛ لأنه يقلب الحقيقة الكبرى. يأخذ القلب الذي خلقه الله، والرزق الذي أعطاه الله، والعمر الذي وهبه الله، ثم يصرف الخضوع لغيره. وأيُّ ظلم أعظم من أن يقف العبد في كون الله، يتنفس هواءه، ويأكل رزقه، ثم يعلق قلبه بسواه؟

الفصل السادس

وصية بين أنفاس الأم

وفي أثناء وصايا الأب، يأتي صوت الوحي بوصية الوالدين:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

كأن القرآن لا يريد للابن، وهو يسمع أباه يوصيه، أن ينسى الرحلة الطويلة التي أوصلته إلى هذه اللحظة.

ثم يخص الأم بالمشهد:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ)

ليست كلمة (وهناً) وصفاً عابراً.

إنها باب إلى تاريخ من الألم الصامت.

ضعف يتراكم فوق ضعف.

جسدٌ يقتسم غذاءه مع جنين.

نومٌ يتقطع.

والم يكبر.

ثم ولادةٌ تهتز لها أعضاء الأم، ويخرج الطفل إلى الدنيا غير عالمٍ كم عبر من الألم كي يصل.

(وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنٍ)

وبعد الحمل لا ينتهي البذل. يبدأ حملٌ آخر، لا في الرحم، بل على الذراع، وفي السهر، والرضاع، والخوف، والترقب.

الأم تُطعم الطفل من جسدها، ثم تطعمه من وقتها، ثم من قلقها، ثم يخرج إلى الحياة وفي قلبها جبلٌ خفي لا ينقطع.

ولهذا جاء الأمر:

(أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

الشكر لله أولاً؛ لأنه أصل النعمة.

ثم للوالدين؛ لأنهما مجرى الرحمة في الأرض.

لكن القرآن، وهو يأمر بالبر، لا يذيب حدود العقيدة:

(وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)

لا طاعة في هدم التوحيد.

غير أن رفض الباطل لا يعني إسقاط الرحمة:

(وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

ما أدق الميزان!

لا تطعهما في الشرك، لكن لا تهجر إنسانيتهما.

ارفض الفكرة، وأحسن الصحبة.

اثبت على الحق، ولا تتحول قسوتك على الباطل إلى قسوة على الوالدين.

القرآن لا يريد مؤمناً هشاً يتنازل عن دينه إرضاءً للناس، ولا فظاً يتخذ تمسكه

بالدين ذريعة للجفاء.

إنه يصنع قلباً ثابتاً رقيقاً.

ثم يضع الصحبة الكبرى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ)

فالطريق إلى الله له رفقة. والإنسان، مهما ظن نفسه مستقلاً، يتسرب إليه لون من

يصاحبهم. الأرواح تتعلم من الأرواح، والخطوات تستأنس بالخطوات.

فانظر: في سبيل من تمشي؟

الفصل السابع

حَبَّةُ الْخَرْدَلِ الَّتِي لَا تَضِيعُ

يعود لقمان إلى ابنه:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ

إِنَّهُ يَبْنِي فِي قَلْبِهِ عَيْنًا لَا تَنَامُ: عين المراقبة.

يختار أصغر ما يمكن أن يتصوره الذهن: حبة خردل. ثم يخفيها في مكان شديد

الاستتار:

(فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ

ليست فوق الصخرة فُتْرَى، بل في داخلها.

ثم يوسّع احتمالات الخفاء:

(أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ)

شيء ضئيل، في موضع مغلق، داخل هذا الكون الهائل.

هل يضيع؟

(يَأْتِ بِهَا اللَّهُ)

لا يقول: يعلمها فحسب، مع أن علمه محيط بها، بل يأت بها. أي إن ما تفعله لا

يختفي في العدم. سيحضره الله، وقيمه أمامك.

يا له من معنى يوقظ الضمير!

ليس عليك أن تنتظر عيناً بشرية كي تستقيم. فقد تغلق الباب، وتطفئ الضوء، وتحو

الأثر، لكنك لا تستطيع أن تخرج من علم الله.

وفي هذا المعنى رهبة للذنوب، لكنه طمأنينة للمظلوم أيضاً.

دمعةٌ لم يرها أحد، يأتي بها الله.

صدقةٌ أخفيها، يأتي بها الله.

كلمةٌ خير قلتها في قلب منكسر ثم نسيته، يأتي بها الله.

ألم ابتلعه كي لا تؤذي أحداً، يأتي به الله.

لا تضيع عنده الخردلة.

فكيف يضيع قلبٌ كامل انكسر بين يديه؟

(إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

لطيفٌ يصل علمه إلى ما خفي ودق.

خبيرٌ بما وراء الصور والعبارات.

يعلم الذنب، ويعلم الندم الذي تبعه.

يعلم العمل، ويعلم النية التي أنشأته.

يعلم ابتسامتك، ويعلم الجرح الذي أخفيته وراءها.

إن مراقبة الله ليست سجناً للروح، بل تحرير لها من مراقبة الناس. حين تعلم أن الله

يرى، لا يعود مدحهم هو الذي يصنعك، ولا غيابهم يسمح لك أن تنهار.

الفصل الثامن

الصلاة التي تصنع صاحبها

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)

بعد التوحيد والمراقبة تأتي الصلاة.

لأن القلب الذي عرف الله يحتاج إلى موعدٍ يتجدد فيه هذا التعارف. والصلاة ليست حركاتٍ تُنجز، بل بناءٌ يُقام.

قال: (أَقِم)، ولم يقل: أَدِّ.

فالإقامة تثنى بالتثنية والاستقامة والحضور. كأن الصلاة بيتٌ ينبغي أن ترفع أعمدته داخل قلبك، حتى يكون لك في زحام الحياة موضعٌ تعود فيه إلى حقيقتك.

الصلاة تعيد ترتيب الفوضى.

كلما بعثرتك الدنيا، جمعتك.

كلما كبرت الأشياء في عينيك، كبرت الله.

كلما لصق التراب بروحك، نادتك إلى العلو.

ثم:

(وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

لا ين عزل المؤمن في صلاحه كجزيرة مغلقة. ما إن يستضيء قلبه حتى يشعر بمسؤوليته تجاه العمة من حوله.

لكن الأمر بالمعروف لا يكون معروفاً حتى يصدر عن رحمة، والنهي عن المنكر قد يصبح منكراً إذا تلبس بالكبر والإهانة.

ليس المقصود أن تنتصر على العاصي، بل أن تنتصر له على معصيته.
أن تمد يدك لا أن ترفع نفسك فوقه.
أن تكره سقوطه، لا أن تتلذذ بإدانتته.

ثم يعرف لقمان أن من يحمل الحق سيلقى ما يؤذيه:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ)

لم يقل: إن أصابك.

فالطريق ليس مفروشا برضا الناس. من أمر بمعروفٍ صادقاً اصطدم بمصالح. ومن
نهى عن منكرٍ حكيماً أيقظ مقاومة النفوس. ومن عاش للحق وجد حوله من يسيء
فهمه.

ولذلك لا تكفي المعرفة وحدها.

تحتاج إلى صبر يحميها.

(إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)

العزم أن يبقى القلب على وجهته حين تُتعبه الطريق. ليس القوي من اندفع في
البداية، بل من حفظ عهده عندما طال المسير.

الفصل التاسع

لَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ

بعد أن بنى لقمان باطن ابنه، التفت إلى هيئته بين الناس:

(وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)

صورةً بديعةً للكبر.

وجهٌ يميل عن الناس، كأن صاحبه لا يراهم جديدين بأن ينظر إليهم. إن التكبر يبدأ فكرةً خفيةً في القلب، ثم يفضحه الجسد: في التفاتة، ونبرة، وطريقة مصافحة، وصمتٍ متعمد، وتجاهلٍ بارد.

قد لا يقول المتكبر: أنا خير منك.

لكن خذها يقولها.

والقرآن يربي الإنسان حتى في زاوية وجهه؛ لأن الإيمان لا يبقى معنىً مجرداً، بل يتسرب إلى الملامح والمشى والصوت.

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا)

الأرض التي تمشي عليها سبقتك، وستبقى بعدك، وستحتوي جسدك يوماً. فكيف يتكبر فوق التراب من بدأ من تراب، ويعيش على ما يخرج من التراب، ثم يعود إلى التراب؟

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

المختال مأخوذ بخياله عن نفسه، والفخور يريد أن يفرض ذلك الخيال على الآخرين.

رأى نعمةً عنده، فَنسيَ واهبها.
ورأى نقصاً عند غيره، فَنسيَ عيوبه.
ثم بنى من الوهم عرشاً، وجلس عليه وحده.
والدواء:

(وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)

كن معتدلاً. لا تمشِ مشية المتعالي، ولا مشية المنهزم. امشِ بهدوء من عرف قدره: عبدُ أكرمهِ الله، فلا يذل نفسه، وعبدُ خلقه الله، فلا يتعالى على عباده.

(وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ)

حتى الصوت له أخلاق.
ليس ارتفاع الصوت دليل قوة. كثيراً ما يصرخ الإنسان لأن حجته ضعيفة، أو لأن نفسه تريد أن تغطي على الآخرين بدل أن تقنعهم.
الحكمة لا تحتاج إلى صخب.

ولذلك جاءت المقارنة القاطعة:

(إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

الصوت حين ينفصل عن المعنى، ويرتفع بلا ضرورة، لا يصبح مهيئاً، بل منكراً.
وهنا يكتمل الفرق بين صوتين في السورة: هو الحديث الذي يملأ الحياة ضجيجاً، وصوت لقمان الهادئ الذي يغيّر قلباً.
ما أكثر الأصوات.
وما أقل الكلمات التي تستحق أن تُسمع.

الفصل العاشر

نَعَمْ ظَاهِرَةٌ وَأُخْرَى تَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ

بعد وصايا البيت، تفتح السورة نوافذ الكون من جديد:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

التسخير هو أن تجد العالم مهياً لوجودك قبل أن تأتي.

الشمس لم تنتظر طلبك لتشرق.

والأرض لم تستأذنك لتستقر.

والماء لم يتعلم حاجتك بعد ميلادك.

كل شيء كان يُعدُّ لاستقبالك قبل أن تعرف أنك قادم.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

أسبغها: أتمها، وأوسعها، وجعلها تغشاك من كل جانب.

نعم ظاهرة نعرف أسماءها.

ونعم باطنة لا نعرف أنها نعم.

أبوابٌ فتحت لك، وأبوابٌ أغلقت رحمةً بك.

أشياء أعطاك الله إياها، وأشياء حماك منها.

أقدارٌ فهمتها فحمدت، وأقدارٌ ستفهمها بعد حين.

ومن النعم الباطنة أن يستر الله عيبك.

وأن يصرف عنك بلاءً لم تشعر باقترابه.

وأن يضع في قلبك نفوراً من طريقٍ كان سيهلكك.

وأن يؤخر ما أحببت حتى ينضج قلبك لاستقباله.

إننا نشكر على قليل مما نعرف، فكيف بما لا نعرف؟

ومع هذا الفيض:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

لا علم في عقله.

ولا هدى في قلبه.

ولا كتاب في يده.

ومع ذلك يجادل!

فالجهل لا يصمت دائماً. بل قد يكون أكثر الأصوات جرأة؛ لأن صاحبه لا يعرف حجم ما يجهل.

وحين يُقال لهم:

(اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ)

يقولون:

(بَلْ تَّبِعْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا)

إنهم لا يسألون: أحقُّ هو؟

بل يسألون: أقدم هو؟

أورثناه أم لا؟

لكن قدم الخطأ لا يجعله صواباً، وكثرة السائرين لا تحول الطريق المنحرف إلى صراط مستقيم.

قد يكون البر بالآباء في الدعاء لهم، لا في حمل أخطائهم إلى الأبد.

الفصل الحادي عشر

العروة التي لا تنكسر

(وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)

أجمل ما في الإنسان وجهه؛ لأنه موضع هويته، ونافذة مشاعره، وأقرب ما يعرفه الناس منه. فإذا أسلم وجهه لله، فقد أسلم ذاته كلها.

لكن الإسلام ليس دعوى ساكنة:

(وَهُوَ مُحْسِنٌ)

قلبٌ مستسلم، وعملٌ جميل.

ثم تأتي صورة العروة الوثقى. والحياة بحر مضطرب، والأهواء رياح، والفتن أمواج، والإنسان يبحث عن شيء يمسك به فلا ينقطع.

من أمسك بالمال، أفلت منه.

ومن أمسك بالناس، تغيروا.

ومن أمسك بقوته، أضعفها الزمن.

ومن أمسك بالله، أمسك بالعروة التي لا تنفصم.

(وَالِىَ اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

تذهب الطرق كلها إليه، وإن بدا للناس أنها تفرق. وتنتهي الخصومات عنده، وتكشف النيات بين يديه، وتسقط الألقاب، وتبقى الحقائق.

ولهذا يطمئن الله رسوله ﷺ:

(وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ)

الحزن النبوي حزنٌ رحمة، لكنه لا ينبغي أن يتحول إلى استنزاف يهدم القلب. أنت تدعو، ولا تملك أن تزرع الإيمان قسراً. تفتح الباب، لكنك لا تستطيع أن تجبر قلباً على الدخول.

إن الداعية يبلغ، والله يهدي.

ثم يكشف التناقض في نفوس المشركين:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

يعرفون الخالق، لكنهم لا يعطونه حقه.

وهذا أخطر أنواع الانقسام: أن يعرف العقل حقيقة لا يخضع لها القلب. فالمعرفة التي لا تنشئ عبودية قد تصبح حجةً على صاحبها.

الفصل الثاني عشر

لو صارت الأشجار أقلاماً

ثم تأتي الآية التي تجعل اللغة نفسها تقف مبهوتة:

(وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ)

تُحِيلُ أَشْجَارُ الْأَرْضِ كُلِّهَا.

غاباتها التي تراها، وتلك التي لم تراها.

أشجار الجبال والسهول والجزر.

كل جذع قلم.

وكل غصن قلم.

ثم يتحول البحر إلى مداد:

(وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ)

مُحِيطٌ وَرَاءَ مُحِيطٍ.

مدادٌ لا يكاد الخيال يبلغ ساحله.

تبدأ الأقلام بالكتابة. تكتب من علم الله، وحكمته، ومقاديره، وآياته، وأسرار

صنعه. تكتب حتى تُبْرِى الأقلام، وتُجف البحار.

فهل تنتهي كلمات الله؟

(مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ)

تنفد الأشجار، ولا تنفذ كلماته.

تُجف البحار، ولا ينتهي علمه.

يعجز العدد، ولا تحيط العقول.

كل ما كتبه البشر قطرةً في بحر.
وكل ما اكتشفوه نافذةً في جدار لا يرون نهايته.
وكل كتابٍ ألفوه هامشٌ صغيرٌ على صفحةٍ من صفحات الخلق.
هذه الآية تكسر غرور العقل من غير أن تهينه. تقول له: تعلّم، وابحث، واكتب،
واكتشف؛ لكن لا تظن أن ما بلغته هو نهاية الحقيقة.
كلما اتسعت المعرفة الحقّة، اتسع معها التواضع.
والقرآن نفسه من كلمات الله، لكنه ليس الكلمة الأخيرة بمعنى استنفاد العلم
الإلهي؛ بل هو القدر الذي شاء الله أن يهدي به الإنسان. وراء كل آية آفاق،
وكلها غرف القلب منها وجد الماء أعمق.
(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)
عزيزٌ لا ينفد ملكه.
حكيمٌ لا تقع كلمةٌ من كلماته، ولا إرادةٌ من إراداته، إلا في موضعها.
ما أضيق الإنسان حين يعتز بما كتب.
وما أعظمه حين يجعل قلبه خادماً لكلمات الله.

الفصل الثالث عشر

خلقُ الجميع نخلق نفسٍ واحدة
(مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

نحن نرى الكثرة فنعجز عن تصورها.

مليارات البشر.

وجوه لا تتشابه.

أجساد تحولت إلى تراب.

أجيال مضت، وأجيال ستأتي.

كيف يُبعثون جميعاً؟

لكننا نقيس قدرة الله بعجزنا. نحن كلها كثرت علينا الأشياء ثقل حملها، أما قدرة

الله فلا تتوزع حتى تضعف، ولا تحتاج إلى زمن حتى تنجز.

خلق الجميع عنده نخلق نفس واحدة.

لا تزعجه الأصوات إذا دعته.

ولا تختلط عليه اللغات.

ولا يشغله قلبٌ عن قلب.

ولا بعثُ أمة عن بعث أمة.

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

يسمع كل واحدٍ كأنه الوحيد الذي يتكلم.

ويرى كل واحدٍ كأنه الوحيد في الوجود.

وحين تدعوه في ظلمة الليل، لا تقل: كم من داع الآن! فهو لا يوزع سمعه بينكم.

يسمعك بكامل سمعه، ويرى موضعك بكامل بصره.

الفصل الرابع عشر

الليل يدخل في النهار

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوْجِئُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوْجِئُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)

الإيلاج دخولٌ لطيف متدرج.

لا ينقضُ الليل على النهار دفعةً واحدة، بل يتسلل إليه. ولا يشق النهار الظلمة

بعنف، بل ينمو الضوء قليلاً قليلاً حتى تمتلئ به الآفاق.

وهكذا كثيرٌ من أقدار الله.

لا يتحول الإنسان في لحظة.

ولا يزول الحزن دائماً فجأة.

ولا يولد اليقين كاملاً.

قد يدخل النور في قلبك كما يدخل النهار في الليل: خيطاً رقيقاً أولاً، ثم يتسع حتى

لا يبقى للظلام إلا أطراف بعيدة.

فلا تحتقر البدايات الصغيرة.

آية أثرت فيك.

دمعة نزلت في صلاة.

ذنوب بدأت تكرهه.

خطوة عدت بها إلى الله.

ربما كان ذلك فجراً يتكوّن.

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى)

حتى الشمس تجري إلى أجل.

والقمر يسير إلى نهاية.

فكيف يظن الإنسان أن أيامه ستقف له؟

كل شيء يتحرك نحو الموعد. والكون، على ضخامته، ليس مقيماً؛ إنه مسافر.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ)

الله هو الحق؛ لا يتغير ولا يزول. وكل ما سواه يستمد وجوده منه، ثم ينتهي إليه.

فمن تعلق بالباطل عاش مهتداً بالزوال.

ومن تعلق بالحق وجد الثبات في عالم يتغير.

الفصل الخامس عشر

السفينة بين موجتين

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نِعْمَتِ اللَّهِ)

السفينة تبدو وكأنها تجري بقوة محرّكها، وبخبرة قائدها، ويأحكام صانعها. والقرآن لا ينفى الأسباب، لكنه يردّها إلى أصلها:

(نِعْمَتِ اللَّهِ)

فمن خلق الماء وخصائصه؟

ومن ألهم الإنسان صناعة السفينة؟

ومن سخّر الريح؟

ومن حفظ التوازن بين الغرق والنجاة؟

نحن نرى الأدوات وننسى اليد التي أعطت الأدوات قدرتها.

ثم يثور البحر:

(وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)

الموج لم يعد ماءً، بل صار ظلالاً مرتفعة تُطبق عليهم. عندها تسقط الآلهة المصنوعة. ينسى الإنسان الأسماء التي كان يرددّها في الرخاء، ويخرج من أعماقه نداء التوحيد.

الخطر يزيل الزينة عن الفطرة.

حين تنكسر الحيلة، يظهر اليقين المخبوء. وحين تضيق الأرض، يعرف القلب أن له باباً في السماء.

لكن المأساة:

(فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ)

كانوا في البحر مخلصين، فلما مست أقدامهم اليابسة، جفَّ في قلوب بعضهم عهد النجاة.

كم نصنع لله وعوداً في العاصفة، ثم ننساها حين يهدأ البحر!

نقول في المرض: إن شفيتني تغيّرت.

وفي الخوف: إن نجيتني أطعت.

وفي الضيق: إن فرّجت عني شكرت.

ثم يأتي البر، فنعود إلى غفلتنا، كأن اليد التي رفعت الموج عنا لم تكن يد الله.

المؤمن الحق لا يحتاج إلى العاصفة كي يعرف ربه. يحمل إخلاص البحر معه إلى البر.

الفصل السادس عشر

يَوْمٌ لَا يَحِلُّ فِيهِ أَحَدٌ أَحَدًا

تقترب السورة من خاتمتها بنداء يشمل الجميع:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

لم يقل: اخشوا ربكم فقط، بل اتقوا ربكم؛ والرب هو الذي خلق وربّي وأنعم. فالذي يحذرك من اليوم العظيم هو نفسه الذي فتح لك باب النجاة منه.

(وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا)

هنا تعود علاقة الأب والابن التي ملأت قلب السورة.

في الدنيا، يخو الأب على ابنه، ويقوده بالحكمة، ويخشى عليه من الشرك والذنوب والكبر. وفي الدنيا قد يبذل الأب نفسه كي ينجو ولده.

لكن ثمة يوماً تقف فيه كل نفس وحدها.

لا يستطيع لقمان، مع كل حكمته وحبّه، أن يحمل عن ابنه عمله. ولا يستطيع الابن، مع كل برّه، أن يدفع عن أبيه الحساب.

الحبة تُرشد في الدنيا، لكنها لا تُغني عن العمل في الآخرة.

وهنا نفهم عظمة التربية: إن أصدق ما يمنحه الأب لابنه ليس المال الذي يتركه له، بل النور الذي يدهله على الطريق قبل أن يأتي يومٌ لا يستطيع أن يمشي عنه فيه.

(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

والحق لا يتأخر لأنه نُسِي، ولا يسقط لأنه استُبعِد.

(فَلَا تُفَرِّقُوا بَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

الدنيا لا تكذب عليك بلسان، بل تكذب عليك بمشهدها.

تبدو طويلة وهي قصيرة.

وتبدو ثابتة وهي راحلة.

وتبدو مكتملة وهي ناقصة.

وتعدك بأنك إذا ملكت شيئاً استرحت، فإذا ملكته فتحت فيك جوعاً إلى غيره.

وليست المشكلة أن تعيش فيها، بل أن تغتر بها. أن تستخدم ما خلق جسرًا كأنه

دار إقامة، وأن تجعل الوسيلة غاية، والممر وطنًا أخيرًا.

(وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)

قد يغرّ الشيطان الإنسان برحمة الله، فيجعله يتمنى المغفرة من غير توبة، والنجاة من

غير سير، والحصاد من غير بذر.

الرجاء عبادة، لكنه إذا انفصل عن العمل صار أمنية مخدّرة.

الله رحيم؛ ولذلك دعاك.

وغفور؛ ولذلك فتح باب العودة.

وحكيم؛ ولذلك لا يسوي بين من أقبل عليه ومن أعرض عنه مصرًا.

الفصل السابع عشر

مفاتيح الغيب

تُحْمُ السورة بخمسة أبواب مغلقة لا يملك مفاتيحها إلا الله:

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ)

يسأل الإنسان: متى النهاية؟

فيجيئه القرآن ضمناً: ليس شأنك أن تعرف مواعدها، بل أن تعرف كيف تستعد لها.

إخفاء الساعة ليس نقصاً في البيان، بل جزء من التربية. لأن من عرف موعد الامتحان قد يؤجل يقظته، أما من علم أنه آتٍ ولم يعرف ساعته، بقي قلبه مستعداً.

(وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ)

المطر ينزل في مكان، فتتحول الأرض الميتة إلى حياة. وقد يتأخر حتى تئيبس الشفاه، ثم يأتي في اللحظة التي كتبها الله. وكذلك غيث القلب.

قد يطول جفافك، وتظن أنك لن تبكي من خشية الله مرة أخرى، ثم تنزل آية على روحك، فتخضر المساحات اليابسة كلها.

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ)

لا يعلم مجرد الذكورة والأنوثة، بل يعلم الإنسان كله قبل أن يعرف نفسه: ملامحه، وعمره، ورزقه، وخطواته، ومواجهه، والأبواب التي سيطرقها، والدموع التي سيخفيها، والكلمة التي ستكون سبب نجاته.

هو في الرحم جسدٌ صغير لا يعلم شيئاً، لكنه مكشوف أمام علم الله كاملاً.
(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا)

الغد أقرب غيبٍ إلينا، ومع ذلك لا نملكه.
نرتب جداولنا كأن الزمن تابع لنا. نعدُّ المواعيد، ونبني التوقعات، ثم تأتي ساعة واحدة فتغير وجه الحياة.

لا يعني هذا أن نترك التخطيط، بل أن نخطط بقلب متواضع، ونقول بصدق: إن شاء الله.

نحن نملك السعي، ولا نملك النتائج.

نملك البذرة، ولا نملك المطر.

نملك الخطوة، ولا نملك الوصول إلا بإذنه.

(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)

قد يسكن الإنسان بيتاً طويلاً، ثم تكون نهايته في أرض لم تخطر له. وقد يودع الناس صباحاً وهو يظن أنه سيعود مساءً، ولا يعلم أن آخر موضع تقع عليه عيناه قد اقترب.

الموت لا يسألنا عن خططنا.

لكن الآية لا تريد أن ترعبنا رعباً يشل الحياة، بل أن تحررنا من وهم السيطرة.
أن نحسن ما بين أيدينا الآن؛ لأن الغد ليس وثيقةً في جيوبنا.

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

بدأت السورة بالكتاب الحكيم، وانتهت بالعليم الخبير.

وبين الحكمة والعلم سارت الرحلة كلها: من تربية الابن، إلى بناء الضمير، إلى أدب المشي والصوت، إلى السماوات والأرض، إلى البحر والمداد، إلى اليوم الآخر والغيب.

وكانها تقول: سَلِّمْ قلبك لمن يعلم ما لا تعلم؛ فالحكمة أن تثق بعلم الله حين تقف عند حدود علمك.

خاتمة

الوصية التي ما زالت تُقال

تنتهي سورة لقمان، لكن صوت الأب لا ينتهي.
يبقى نداء (يَا بُنَيَّ) معلقاً في ذاكرة القلب، كأن لقمان لا يخاطب ابنه وحده، بل يخاطب كل إنسان لا يزال فيه موضعٌ لكلمة صادقة.
يا بُنَيَّ:

وحّد الله كي لا تتمزق بين الأرباب الصغيرة.
وراقبه؛ خفة الخردل لا تغيب عنه.
وأقم الصلاة؛ فإن الدنيا تبعثرك ولا يجمعك إلا الوقوف بين يديه.
واصنع الخير، وقاوم الشر، واصبر؛ فالحق ثقيل على النفوس قبل أن يصير نجاتها.
ولا تمل خدك عن الناس؛ فأنت مثلهم خرجت ضعيفاً، وستعود وحدك.
واقصد في مشيك؛ فالأرض ليست مسرحاً لاستعراضك، بل طريقٌ إلى قبرك.
واغضض من صوتك؛ فالحكمة لا تحتاج إلى صراخ.
ثم ارفع رأسك إلى السماء.
انظر إليها بلا عمدٍ تراها.
وانظر إلى الجبال وهي تمسك رجفة الأرض.
وإلى الليل وهو يدخل في النهار.

وإلى السفن وهي تمضي فوق البحر بنعمة الله.
وإلى الأشجار كلها، لو صارت أقلاماً، والبحار كلها لو صارت مداداً.
ثم اعلم أنك، مهما كتبت، لم تبلغ آخر كلمات الله.
وأنك، مهما عرفت، تقف عند ساحل علمه.
وأنك، مهما امتد بك العمر، لا تدري ماذا تكسب غداً، ولا بأي أرض تموت.
فلا تغتر.

ليس العاقل من جمع أخبار الدنيا، بل من عرف قدرها.
وليس الحكيم من غلب الناس في الجدل، بل من غلب هواه بالحقيقة.
وليس الأب من أورث ابنه اسماً ومالاً، بل من وضع في قلبه بوصلة تشير إلى الله
حين تضيع الجهات.
لقد أقامت السورة ميزاناً عجيباً بين القرب والاتساع.
قربُ أبٍ من ابنه.
واتساعُ سماءاتٍ بلا عمد.
خفةُ حبة خردل.
وضخامةُ جبالٍ راسيات.
هدوءُ كلمة الحكمة.
وضجيجُ لهُو الحديث.
قصرُ العمر.
ولانهايةُ كلمات الله.

وهناك، بين قلب الأب وأفق الكون، يولد الإنسان المؤمن: صغيراً أمام عظمة
الله، عزيزاً بتوحيده، رقيقاً مع الخلق، يقظاً في ضميره، هادئ الخُطوة والصوت،
يحمل في قلبه يقيناً بأن شيئاً لا يضيع عند الله.

لا الحبة المختبئة في الصخرة.
ولا الدمعة المختبئة في العين.
ولا الدعاء المختبئ في الصدر.
ولا الخير الذي مرَّ على الأرض ولم يصفق له أحد.
كل ذلك يأتي به الله.

وحين تعلم النفس هذا، يهدأ اضطرابها.
تمشي في الأرض قصداً.
وتكلم خفصاً.
وتعمل إخلاصاً.
وتحب رحمةً.
وتستعد للقاء الله؛ لا لأنها تعرف متى تأتي الساعة، بل لأنها عرفت من يده
الساعة.

وهذه هي الحكمة:

أن تعيش في عالمٍ تعلو فيه الأصوات، وقلبك يُصغي إلى الوحي.
وأن تمشي بين مغريات الأرض، ووجهك مستسلمٌ لله.
وأن ترى حدود علمك، فلا تيأس، بل تتعلّق بالعليم الخبير.
وأن تدرك قصر حياتك، فتجعلها كلمةً طيبةً في كتابٍ لا تنفد كلماته.
ثم إذا أرخى الليل ستاره، واضطربت بك الأسئلة، سمعت من أعماق السورة نداءً
دافئاً، كأن الحكمة نفسها قد جلست إلى جوارك، وربت على قلبك، وقالت:
يا بُنَيَّ... إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.